{إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}

السيدة غنيمة

سيرة ذاتية

أحمد عبدالمنعم دياب

إسم الكتاب/ السيدة غنيمة
إسم المؤلف/أحمد عبدالمنعم عبدالوهاب دياب
تصميم الغلاف/أحمد عبدالمنعم دياب
رقم الإيداع في مجلة الأمير أحمد/١٩٨٦٩ـ ٢٠٢٤
انتاج/ مجلة الأمير أحمد
تاريخ الإنتاج/٢٥-٨-٢٠٢٤

كافة الحقوق محفوظة للناشر

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء
بأي طريقة بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة
أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية
أو غير إلكترونية دون إذن كتابي من الناشر

السيدة غنيمة

قصة من واقع الحياة المؤلم

سيرة ذاتية

أحمد عبد المنعم دياب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى(إنما يوفَّى الصَّابرون أجرهم بغير حِسَاب) سورة الزمر آية ١٠ .إن الله إذا أحب عبدا طهره من ذنوبه قبل موته حتى يأتيه يوم القيامة بلا ذنوب يحاسب أو يعاقب عليها. وعن أنس قال قال رسول الله صل الله عليه وسلم: تنصب الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صبا بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية أنهم كانوا في الدنيا تقرض أجسادهم بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من فضل وذلك قوله: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

ويسأل البعض كيف يحب الله عبدا ويبتليه بالأمراض قبل موته؟ أقول والله أعلم إن الله أعدل مما تتخيل وليس معنى أنه يحبك أن يغفر لك ذنب أذنبته في حق العباد فلعلك اغتبت أحد أو شتمته، ولأنه يحبك عمل على تطهيرك منها بالبلاء قبل موتك حتى تأتيه يوم القيامة وليس في رقبتك ذنب لأحد، فمهما كانت درجة صلاحك فليس معناه أنك ملاك وليس لك ذنوب ولم تخطئ، فكل ابن آدم خطاء، وهذه الدنيا عند الله حقيرة ولأن يبتليك فيها بشيء يغفر لك بها ذنوبك أهون عنده من أن يعذبك بذنوبك يوم القيامة، ونحن الآن بصدد قصة لإحدى النساء الصابرات التي رأت في حياتها بلاء عظيم وبالأخص في آخر حياتها، وقصة بلائها هي من أعظم القصص التي رأيتها وسمعتها في حياتي، أمرأة نحسبها من الصابرين والتي أكرمها الله وأحسن لها في خاتمتها بأشياء جميلة ظهرت لنا واضحة جلية ولا نزكي على الله أحد.

القصة

في صباح يوم السبت تلقيت اتصال من شقيقتي هند لتخبرني أن والدتي فقدت الوعي تماما ويجب أن أحضر لكي أراها قبل أن تموت، فقت من نومي على هذا الخبر المؤلم واتصلت بشركة نقل ركاب وحجزت ولم يكن هناك موعد غير الساعة الثامنة مساء. مر الوقت عليّ في كرب شديد وفي محاولة تخيّل الحياة دون أمي، وكيف سيأخذون مني الأرض التي نبت منها وبها كل جذوري؟ وكيف سأعيش؟ فأنا الآن كالنبات الذي معرض للهلاك في أي لحظة، كان تخيّل يشبه الكابوس وأنا غير مقتنع تماما بموت أمي الآن، وغير متقبل للفكرة حتى أنني اتصلت بشقيقتي وقلت لها: إن الله أخذ أمي لترتاح من عذابها قليلاً وسيعيدها لنا مرة أخرى.
وكنت أقنع نفسي طول اليوم بهذه الفكرة إلى أن أتت الساعة الثامنة مساءً وركبت من شرم الشيخ متجها إلى مدينتي مدينة رشيد، وفي حوالي الساعة العاشرة مساءً اتصلت بي زوجة أخي الأكبر عصام لتبلغني بوفاة أمي، تماسكت خلال ثواني المكالمة وقلت: إن لله وإن إليه راجعون. ثم أدخلت رأسي خلف ستارة الشباك وأجهشت بالبكاء طويلاً، وخلال بكائي كان عقلي يستعيد ذكرياتي كلها مع أمي ويستعرض حياتها ويتذكر كل كلماتها عن حياتها في طفولتها وصباها وشبابها.
ولدت أمي في خمسينيات القرن العشرين في أسرة متيسرة الحال عددها ١٠ أفراد، وكعادة الفتيات في هذا الزمان تعلمت الخياطة تعلم بدائي وأتقنتها، وكانت قريبة جدا من والدتها حتى بعد أن تزوجت، وكانت أمي عندما تزور جدتي كانت جدتي تصفق بيدها وتضحك وكأنها طفلة صغيرة رأت أمها بعد غياب.

تزوجت أمي أبي الذي يعمل في الزراعة، وسكنت معه في بيت العائلة، في بيئة تختلف تماما عن البيئة التي تربت فيها، تعايشت معهم ومع مشاكلهم، فهي كانت أسرة بسيطة طيبة يحدث بينهم ما يحدث داخل البيوت من شد وجزب وخصام وتصالح، وتمر السنين على هذا الحال أنجبت فيهم أُمي خمسة أطفال أُنثتان وثلاث ذكور وهم هند ومرفت وعصام وأحمد ومحمد، ماتت مرفت وهي رضيعة، وأثناء طفولتنا توفت جدتي أم أبي التي كانت رأس العائلة فانقسمت العائلة وقسموا الميراث وانفصلت أسرتي وأصبح لها حياة مستقلة ليبدأ فصل

جديد في حياة جديدة.
فصل جديد ومعاناة وهموم جديدة مع أسرة متوسطة الحال مستورة همها الأول في هذا الوقت هو الحصول على قوت يومها، وعلى الرغم من ظروفنا البسيطة إلا أننا كنا سعداء جدا، نسهر مع أمي على مسلسلات الإذاعة، وتحكي لنا قصص أسطورية، وحينما يأتي ميعاد النوم أطفأت النور وطرقت على ظهر السرير وأخرجت أصوات كانت مرعبة لنا معلنة بها عن مجيء الغول ليأكلنا إن لم ننام، وأنا عن نفسي كنت أغوص تحت الغطاء وأنام حتى لا يأكلني الغول، ثم أستيقظ في الصباح المبكر لألعب أنا وإخوتي ونقوم بشغب يضايقها فتقسم لنا على عقابنا، ويخدعني شقيقاي عصام ومحمد على غفلة ويربطونني في شجرة التوت التي كانت أمام البيت ويهربا، وهي كانت أمنيتها أن تمسك بأحد منّا بعد هذا الشغب المزعج وتحققت لها أُمنيتها عندما وجدتني مربوط في الشجرة ونلت أنا العقاب وحدي. ثم تأتي الظهيرة وتبدأ في الطبخ وأنا أسرح كطفل في خيالي داخل قصص وهمية فيها أفعل ما أشاء وفجأة أسمع صوت مرعب يأتي من ناحية أمي فأفزع وأجري عليها ظناً منّي أنه قد أصابها أذى لكنني أكتشف أنها كانت تشهق للملوخية فأستجمع أعصابي بصعوبة ويهرب مني خيالي طول اليوم، وكان لأمي دجاجتان هما بوسي ونورة ويصحبهما ديك، ومن عجائبهما أنهما كلما أرادت إحداهما أن تضع بيضة صعدت إلى شقتنا وقفزت على سرير أمي ورقدت حتى تضع البيضة، وكان الديك ينتظرهما حتى يبيضا وبعد ما ينتهيا يقمنا ويصحبهما الديك ويخرجون دون أي شغب في الغرفة، وهذه كانت حياتنا مع أمي هادئة مستقرة متصالحة حتى مع الحيوانات والطيور، حياة لا يوجد فيها أي شيء من الحداثة كانت تغسل الملابس في الطشت وتطبخ على الباجور وأحيانا الكانون، وفي الصيف تمسك مروحة من ورق لتهون عليها قساوة الحر.
وأما في الشتاء فسقف بيتنا الخشبي القديم لا يختلف كثيرا عن السماء وقت المطر، فكنا نتسابق في إحضار الأواني ونضعها تحت قطرات المطر التي وجدت لها طريق لداخل بيتنا، ثم ننام في الظلمة تحت اللّحاف على سنفونية تصنعها زخات المطر المتساقط فوق سقف بيتنا، وعندما تخترق سقف بيتنا وتسقط في الأواني تصنع مقطوعة موسيقية كفيلة بأن تجعلك تنام بقية عمرك، والتي كان يجعل للشتاء طعم جميل هي الظلمة والمسلسلات الإذاعية التي كانت تعشقها أمي وتسمعها في راديو قديم يعمل بالحجارة.

وللمساعدة في تحسين حياتنا المعيشية استخدمت أمي مكينة الخياطة التي تمتلكها لتعمل عليها في المنزل، ومن سماحتها أنها لم تكن تطلب أجر على عملها وكانت تأخذ ما يعطونها حتى وإن كان زهيدا جدا، ومنهم من كان يبخل في عطائه لدرجة تثير الغضب، ومع ذلك لم تكن تعلق أو تراجع أحد في عطائه.
كانت أمي كريمة جدا في ما تمتلكه مهما كان بسيط فمثلا عندما أصبح لدى أبي بقرة كانت سمحةً جدا في بيع اللبن، كانت تعطي فوق اللبن المتفق عليه كوب لبن زيادة وإن لم يكن عندها تقول للشاري: يبقى لك عندي كوب لبن. وكأنه أصبح حق مكتسب لزبائنها. وكان لجيرانها نصيب بالمجان من لبن بقرتها الوحيدة، وعلى الرغم من قلة اللبن إلا أنه كان فيه بركة من الله. وعلى الرغم من بساطة ما كانت تفعل إلا أنها لم تكن تمتلك أكثر من ذلك، فهي كانت امرأة بسيطة لا تملك إلا البسيط، فلا تستحقر معروف مهما كان قليلاً " فأن تجود بما تملك وأنت لا تملك غيره خير وأكرم عند الله من الغني الذي ينفق فتات ثروته ".

حياة أمي كانت على هذا الحال في سماحة شديدة وتصالح مع النفس، لن أقول إنها كانت ملاك فنحن البشر نصيب ونخطئ، ولكن كان السائد عندها هو التصالح مع الله والنفس والمجتمع مثلها مثل بقية النساء التي عاشرتهن في منطقتنا، فكل واحدة منهن لها قصة مع مئاسيهن العجيبة.

تمر السنين ويتزوج إخوتي وأصبح لها أحفاد لا يعرفون شيء عند استيقاظهم من النوم إلا الذهاب لجدتهم، وكان أكثرهم تعلق بأمي هي جنى ابنة أخي عصام التي كانت تقول عنها أمي: عندما أراها قلبي بيفرح.
كانت أمي قبل مرضها الأخير خفيفة الظل لا يمل أحد من مجالستها، وكان لها مواقف طريفة، وجُمل عجيبة لا نعرف من أين أتت بها، فكانت كلما رأت شيء عجيب تقول: سعيد النبي اللهم احفظنا.
وعندما كانت ترفض إحدى زوجات أخوانِ تنفيذ ما تطلب كانت تقول لها: ده أنا عطياكي راجل وانتي بترفضي طلبي!
وفي يوم وأنا بكلمها في التليفون سألتها: معك رصيد ولا أبعت لك؟
قالت: بعد ما أقفل معك هبحث عن التليفون واشوف معي رصيد ولا لاء.

قلت: ابحثي عنه وأنا معك.
وظلت تبحث عن التليفون وأنا معها على الخط منتظر، ولما اكتشفت أنها تتكلم معي به ضحكنا كثيرا جدا.
وفي يوم كانت تنزل السلالم، فقلت لها: انتظري لما أصورك.
وبعد ما صورتها قالت: وريني الجمال بقى. تقصد صورتها.

وكانت أمي تدعو لي بدعوات جميلة وغير معهودة مثل: ربنا يجعل سعدك من لسانك. ومنها أيضا: تعطي ما تاخد.

ظهر البلاء على أمي منذ شبابها فكانت تعاني من كهربة القلب التي كانت تأتيها نوباتها بلا رأفة ولا رحمة، وكهربة القلب لمن لا يعرفها هي تسارع دقات القلب بشكل جنوني ليجعل كل حواسها في ارتباك يصحبه ألم قاتل، وكان شبابها يُعينها عليه، ولكن عندما كبرت كانت تستسلم له كأسير يُسلم نفسه لآسره ليفعل به ما يحلو وما يشاء، وهي كانت في تقبّل للألم دون حيلة، عيونها يملأها العجز والحزن والوجع، تشكو أمراً عجزت أمامه إلى الله، وقبل وفاتها بحوالي خمسة أعوام أو بأكثر قليلاً زاد البلاء عليها عندما استيقظت من نومها صباحا لا تستطيع التحرك فحملناها وذهبنا بها إلى أكثر من طبيب وكل واحد منهم يطلب إشاعات وتحاليل وكأنهم في حيرة من أمر أمي، إلى أن اكتشف أحدهم أن لديها هشاشة قوية في العظام وهذا أدّى إلى شرخ في الحوض وهي نائمة، وهشاشة العظام ستكون كابوس يواجه أمي في سنينها الأخيرة.
وبعد فترة من اكتشاف هشاشة العظام وشرخ في الحوض عانت أمي من وجع شديد في جنبها لم تكن تستطيع الحركة بسببه، احتارت أيضاً الأطباء فيه لأن كل الفحوصات كانت سليمة ومع ذلك كانت تتألم ولا تستطيع الحركة إلى أن فهّم الله أحد الأطباء بأن السبب هي هشاشة العظام المنتشرة في كل عظمها.
عاشت أمي بعد هذه المحنة حوالي ٤ أعوام في صحبة كهربة القلب والضغط والسكر وشرخ في الحوض وهشاشة في العظام، وكانت تتحرك بعكازها حركة بطيئة جدا، ومع ذلك لم تيأس وكانت تُحب الحياة، وعلى الرغم من مرضها المؤلم وحركتها البطيئة، إلا أنها كانت تطبخ، ونفس أمي في الطبخ كان جميلاً جدا بشهادة الكثيرين، وكانت تغسل المواعين وتنظف مطبخها وحمامها، وتنظف

ما تستطيع تنظيفه من شقتها، فهي كانت عدوة للقذارة والوساخة وتكره المكان الغير مرتب، وكانت تقوم كل صباح مبكرا لتطعم طيورها قبل أن تفطر هي.
ظلت أمي على هذا الحال إلى أن أتى اليوم المشؤم وكانت قد تحسنت قليلا حتى أنها غسلت الملابس في الغسالة وهذا لم يحدث منذ فترة طويلة، وبعد ما أنهت الغسيل والطبغ وتنظيف المطبخ وهي في قمة السعادة أن فعلت كل هذا وحدها دخلت الحمام فوقعت ولا تدري كيف وقعت، وتسببت هذه الوقعة في كسر في مفصل الفخذ وعذاب مستمر لن ينتهي إلا بموتها.
حملها إخوتي إلى المستشفى العام برشيد سريعا وهي تتألم وتصرخ وبعد أن عملوا لها إشاعات تبين أن لديها كسر في مفصل الفخذ وحددوا يوما لإجراء عملية تركيب شرائح ومسامير، وبالفعل أجروا لها العملية وخرجت بخير وهي لا تدري ما ينتظرها من ألم، وما كان يصدر منّا لها إلا مواساة تصبرها على ما هي فيه.
خرجت من المستشفى على أمل أن تقوم بالسلامة وجلست في بيتها في انتظار الشفاء. وبعد ما فترة زمانية مرت في ألم وخجل حملوها وخرجوا بها لعمل إشاعة على مكان العملية لكي يطمأنوا على نجاحاها ولكن كانت المفاجأة أن مسمار النخاع طويل زيادة عن اللزوم ويجب تقصيره لأنه يحتك بالحوض وهذا سيسبب مشكلة، صرخت وبكت وقالت: لن أدخل غرفة العمليات مرة أخرى، ما بقي لي في الحياة إلا قليل.
وبعد محايلة قبلت ودخلت غرفة العمليات وخرجت منها وعادت إلى بيتها تنتظر مرة أُخرى الشفاء، الشفاء الذي بات لأمي كصديق غدر بها وترك جسدها ليلاً ورحل وقرر عدم الرجوع مرة أخرى، وكان الأمل يُعشّمها برجوعه ولكننا اكتشفنا فيما بعد أنه كان يكذب عليها وعلينا، وكم كانت لديّ فكرة عن الأمل أنه كذّاب، ولكن في حالة أمي إضطررت لتصديقه، لكنه في النهاية أكد فكرتي عنه.
سائت حالتها أكثر وامتلئ فخذها بالصديد يصحبه ألم فظيع، فنصحنا أحد الأطباء بإخراج الشرائح والمسامير من فخذها لأن جسمها لم يتقبلهم.
اتفقوا على ميعاد العملية وكنت وقتها في عملي بشرم الشيخ، وكانت أُمي تطمئن بي كثيرا وقالت لي عندما سألتها عن الميعاد: لن أذهب إلى المستشفى إلا وأنت معي.
حددت ميعاد الأجازة وقبل نزولي رأيت في المنام أنني وإخوتي نعود من

المستشفى إلى البيت حاملين أمي ميتة في نعشها داخل سيارة.

نزلت أجازة واستقبلتني استقبال باكي حزين وجلست معها يوم وثاني يوم ذهبنا إلى المستشفى وكنا في رمضان، ذهبنا ونحن نأمل أن يقوم الأطباء بإجراء العملية بعد ثلاث أيام، ولكن اكتشفوا مشكلة في الدماء يجب معالجتها أولاً، وظلوا يأجلون العملية بحجة معالجة الدماء وكان الأطباء يحملون غموض مستفز في حديثهم ومن قلة ذوقهم كانوا يتكلمون معنا وهم يمشون.
كنا نُصبّر أمي ونواسيها بأنه عندما تخرج المسامير والشرائح من فخذها ستستريح كثيرا من ألمها، وأثناء مكوث أمي في المستشفى اشتهرت بين الأطباء والممرضين والمرضى، وصنعت جو اجتماعي حولها مع المرضى ورفقائهم وكانت تتحدث وتستمع وكأنها تعرفهم ويعرفونها منذ زمن وكانوا يتقبلون منها كل شيء، وأما أولاد إخوتي فكري وعز ونغم وندى وجنى وعصام ورتاج وسجدة كانوا يتناوبون في زيارتها كلما أُتيحت لهم الفرصة.
وبعد ما أن تم معالجة الدم واستبشرنا بقدوم اجراء العملية لكي نعود إلى بيتنا خرجوا لنا بحجة جديدة وهي أن أمي كبيرة في السن ويجب حجز سرير في غرفة العناية المركزة، ويحضرني موقف غبي من طبيب عندما سألته: متى نستطيع حجز سرير في العناية المركزة؟
قال بغباء: عندما يموت أحد!
صدمتني هذه الإجابة التي فهمت منها أنه لا يخرج أحد من العناية المركزة إلا ميّت، وكان هذا الطبيب إحدى مساوئ المستشفى التي نادرا ما تجد فيها شيء جميل.
ومن مساوئها أيضاً أن جعلوني أنا وأخي محمد نوقع على تقرير يُفيد بأن العملية خطيرة جدا دون أن يوضحوا لنا مدا خطورتها، وكأنهم يريدون تبرأة أنفسهم دون أي أهمية للمريض، حقيقة مستشفى رشيد العامة هي أسوأ مكان رأيته في حياتي، وأحمل فيه ذكريات مؤلمة جدا.

بعد حوالي ثمان أيام رأينا فيهم العذاب بالذات لأمي التي كنت أشعر أنها تنام على سرير من نار، من شدة ما كانت تتألم، أخيرا قرروا أن يُجروا لها العملية غدا.

أتى يوم الغد وتجهزت أمي لدخول العملية وكأنها تتجهز للموت وأتذكر أنها قالت أثناء تغير أختي لها ملابسها في المستشفى: انتم لي تعبين نفسكم مع وحده ميتة؟ ودعناها وداع التي لن تخرج مرة أخرى. ودخلت أمي غرفة العمليات ونحن جلسنا على بابها ننتظر المجهول، والعقل والقلب في صمت رهيب ينتظران أحدهم يخرج علينا من داخل غرفة العمليات ويخبرنا بشيء، والنفس تُحدثُنا بأحاديث مرعبة وتعُدّنا للأسوأ، وبعد ما يقرب من ساعتين خرجت أمي ولم تحتاج إلى العناية المركزة، فرحنا فرحا شديدا وكأنه عيد ولكن لم تلبث فرحتنا طويلا فبعد أن كشفنا على العملية بالإشاعة وجدنا كسر جديد في نصف عظمة الفخذ، مصيبة أخرى! قد دخلت أمي بمصيبة واحدة وخرجت بمصيبتين وبدأت رحلة عذاب نفسية للجميع ورحلة عذاب نفسية وجسدية لأمي، وهي في هذه الحالة كتب لنا الطبيب على خروج بعد ما عملوا لها شدة في قدمها، في الحقيقة وأنا بكتب كلمة طبيب كنت متردد وغير مقتنع بأن أنسب لهم هذا اللقب، وقالت لي إحدى الممرضات: يلا خدوا امكم وامشوا بقى.

وكأنهم يريدون أن يتخلصوا منّا بأي طريقة، وبالفعل حققنا لهم أمنيتهم وخرجنا وهذه كانت سلبية منّا فما كان يجب أن نخرج إلا بتحقيق من جهة خارجية مختصة وعمل محضر بالواقعة، لكي لا تتكرر هذه الجريمة مع أحد وينتهي هذا الإستهتار داخل بيت الرعب والقتل المسمّى بمستشفى رشيد العام.

حملنا أمي وخرجنا وهي في عذاب منقطع النظير وأدخلناها السيارة بصعوبة وأنزلناها منها عندما وصلنا البيت بصعوبة لنا وعذاب لها، وجلست عند أخي عصام في الدور الأول حوالي يوم وثاني يوم حملناها إلى شقتها في الدور الثالث فهي لا ترتح إلا بها.

وبعد يومان من خروجها من المستشفى ودعّتُها وعُدت إلى عملي في شرم الشيخ وأنا محطم نفسياً، والأشد عذاب هو أنني لا أستطيع تحمل ألمها نيابة عنها ولا حتى تخفيفه، فبصدق تمنيت كثيرا تحمّل المرض والألم نيابة عن أمي.

كل يوم كانت تسوء حالة أمي وتزداد التقرحات في جسدها ولا ينفع معها أي علاج. وبجانب مساعدة أخوانِ وزوجاتهما لأمي ففضلهم لا يُنسى أبدا، إلا أن البطل الحقيقي هو ابي، أبي كان بالنسبة لأمي رمز الأمان فمهما حدث بينهم من خلافات إلا أنه كان لا يغدر بها ولا يتخلى عنها في شدتها وفي آخر أيامها تحول

لخادم لها يلبي طلباتها في أي وقت تشاء.
باتت أمي في عذاب، وظهر لها أتب في ظهرها وانعواج في كتفها الأيسر بسبب نومها عام كامل وهي جالسة، والآن أصبحت لا تستطيع النوم بسبب التقرحات المنتشرة في جسدها، فعلى أي جنب ستنام؟ وهل ستستطيع النوم وهي جالسة؟ فمكان جلوسها أيضاً به تقرحات، وجع ما بعده وجع، تقرحات، وشرخ في الحوض، وكسر في مفصل الفخذ وكسر في عظمته، حياة أمي باتت عذاب لا تنام وتصرخ بشكل مستمر من الألم، شدة الألم سطلتها وأصبحت لا تدري بأي وسيلة تعبر عن ألمها غير الصراخ، وعذاب آخر يأتي عندما يحين موعد تغير البامبرز وهي على هذه الحالة، ولكي يستطيع أبي ومنصورة وبدرية زوجات أخوانِ تطهيرها وتنظيفها بالماء وإلباسها البامبرز كانوا يحركونها وهذا يعد عذاب ما بعده عذاب، حتى تمنا البعض منّا أن تموت لكي ترتاح مع أني ضد هذه الفكرة تماما.
ومنّا من كان يطلب منها أن لا تتألم بصوت عالِ، ومنّا من كان يتهمها بعدم الصبر بسبب صرخاتها بالآه، وهذا كان يُحزنها كثيراً، وكأنها يجب أن تكتم وجعها ولا تُنفّس عنه لتكون صابرة. وللعلم فألم المرض يُنتج طاقة سلبية رهيبة داخل الجسد، ولا تخرج هذه الطاقة السلبية إلا بالآاااه بصوت عال أو منخفض حسب قوة الوجع، ومن المُجحف أن تطلب من مريض لا يوجد في جسده شيء سليم مثل أمي بعدم التألم بصوت عالِ، فسطلة الوجع أشد من سطلة الخمر، فهو ليس في وعيه ولا يدري ماذا يفعل أو ماذا يقول. ومن الظلم أن تتهم مريض ليس في جسده شيء سليم مثل أمي بعدم الصبر لأنه يتألم بصوت عالِ فالله وحده الأعلم بعباده. والمرض ليس معناه أن صاحبه ظلم أحد أو طغى على أحد، فهذه الأشياء لا تُغفر إلا برد المظالم إلى أهلها، فأمي لم تكن ذي منصب ولا ذي جاه ولم ترث شيء يُذكر فنقول أنها ظلمت بجاهها أو طغت بمنصبها، أو أكلت ميراث إخوتها، بل كانت امرأة بسيطة جدا. والأصح هو أننا نعيش في الدنيا ونتفاعل مع أسبابها ومن الطبيعي أن نمرض وأن نحزن وأن نفرح. والله سبحانه وتعالى من كرمه علينا يغفر لنا اللمم من ذنوبنا التي ليس فيها ظلم لأحد بالإستغفار وبالمصائب وبالأمراض. وأعد الله كل هذه الأشياء بلاء منه ليجعل جزائنا عليه، مع أنها ناتجة عن أسباب، لكن الله كريم ذو فضل عظيم.
فيجب أن نكون أكثر أدباً مع المريض ونتحمل عصابيته الناتجة عن ضغط

المرض، ولا نُسمعه كلام يُؤذيه، ونُواسيه ونصبر عليه ونحتسب صبرنا عليه عند الله، ويجب أن يعلم المرافق للمريض أنه أمام باب من الخير مفتوح عليه من الله سبحانه وتعالى، ويجب أن يحمد الله عليه، وبهذا فالمريض هو صاحب الفضل على المرافق وليس العكس.

وبعد حوالي ثلاث أسابيع من خروج أمي من المستشفى إزدات التقرحات بشكل عجيب حتى في ظهرها، وأصبح الصديد يخرج من فخذها بكثرة، وازداد عذاب أمي، ولم يعد ينفع معها أي علاج، فقررنا استشارة طبيب آخر فطلب عدة تحاليل وعندما علم بما حدث لها في المستشفى قال: ما كان يجب أن يقوموا بإجراء العملية في فخذها قبل أن يعالجوا الصديد.
في الحقيقة إن أردت أن أضع عنوان لهذه القصة سيكون "قتلوا أمي قتلهم الله" ولكن ما يُطمئنني هو أن بيننا وبينهم لقاء يوم القيامة ولن نسامحهم أبدا.

طلب الطبيب تحاليل وقمنا بعملها وعندما خرجت اكتشف الطبيب مكروب خطير داخل الدم ويجب معالجته فورا، وهذا المكروب هو السبب في انتشار التقرحات. استبشرنا خيراً بهذا الطبيب على الرغم من غلاء علاج هذا المكروب، لكن كل شيء فداء لأمي، ونحن جميعا فدائها.
بدأت أمي في أخذ العلاج الجديد، وللعلم أن أمي في سطلة الوجع لم تكن تتحدث معي ولا مع أحد مثل الأول، لا ينطق لسانها إلا صرخات الألم ليل نهار.
وفي هذه الأثناء مرضت خالتي ملاك مرض مفاجئ ودخلت على إثره العناية المركزة.
وبعد مرور ثلاث أيام على أخذ أمي لعلاج المكروب اتصلت بها صباحا كالعادة لأسأل عنها فتكلمت معي بصوت جيد وتحدثنا وقت طويل وهذا لم يحدث منذ العملية، فرحت فرحا منقطع النظير وظننت أن أمي تتعافى. مر النهار وأتى الليل وفي حوالي الساعة الـ ١٢ ليلاً دخل أبي على أمي غرفتها فوجدها معتدلة في جلوسها دون مساعدة أحد وهذا كان عجيب لأنها كانت تنام وهي جالسة بميل ناحية اليمين وإن أرادت أن تعتدل في جلوسها كانت تحتاج إلى مساعدة، وعندما رأت والدي قالت له: أختي ملاك ماتت.
قال: عرفتي ازاي؟

فأقسمت له أنها ماتت دون أن تُخبره كيف علمت، وأنا أعد هذه الحادثة كرامة من الله لأمي، وهذا ناتج عن تواصل لها مع الله سبحانه وتعالى الذي يعلم الغيب ويمن به على من يشاء من عباده.
تواصلت مع أقاربها في هذا الوقت المتأخر من خلال الهاتف لتخبرهم بموت اختها، ولكن كانوا يؤكدون لها أنهم تركوها في المستشفى بخير ولم تمت. مر الليل وفي الصباح اتصل بها أحد أقاربها ليخبرها بوفاة أختها ملاك، الذي قد أخبرها به الله قبل الجميع.
اتصلت أنا بها في الصباح بعد ما علمت بالخبر وقالت لي: أنا زعلانة أوي يا أحمد، زعلانة أوي.
ورددتها أكثر من مرة.
إزاد البلاء على أمي بموت أختها كثيرا. وبعد ما قامت شقيقتي هند بواجب العزاء في خالتي ملاك ذهبت لزيارة أمي، وكانت أمي في آخر أيامها متعلقة بشقيقتي تعلق شديد مثل تعلق الطفل الرضيع بأمه.
مر هذا النهار وأمي في كرب شديد، ومع اقتراب غروب الشمس ازدادت طفولة أمي وبدأت في أكل الحلوة والأيس كريم وهزرت وضحكت، ولم تضحك ولم تهزر منذ زمن طويل وكأنها شُفيت من مرضها، حتى أن من حولها تعجبوا، وفي حوالي الساعة العاشرة مساء نزل الجميع وبقيت أمي وأختي وأبي، دخل أبي لينام وظلت أختي مع أمي، وفي حوالي الساعة الثانية عشر ليلاً ظهرت كرامة أخرى من الله لأمي وهي أن كل وجعها اختفى ولم تعد تشعر بأي ألم، حتى أنها تعجبت من هذا وقالت لهند: أنا مش حسه بأي وجع.
وظلت تذكر الله، وكان ذكرها: لا حول ولا قوة إلا بالله.
وطلبت أن ترى إخوتي، فقالت لها هند: أنا جنبك ما فيش داعي نقلق أحد.
وقامت شقيقتي وعملت لها مشروبها المفضل الليمون، وهي لا تفعل شيء غير أنها تذكر الله، حتى أتى موعد أذان الفجر وهي لا تشعر بأي ألم، استيقظ أبي وجلس مع أمي وخلدت شقيقتي للنوم، وعندما أشرق نور الله قام أبي وأيقظ إخوتي واجتمعوا حول أمي ونظرت لهم واحد واحد ومدت يدها مرتين لزوجة أخي عصام فهي كانت تحبها، ثم غابت عن الوعي غير أنها كانت بعض الأحيان تمسك بيد شقيقتي. وعندما أردوا تنظيفها وتغير البامبرز كالعادة ظهرت كرامة أخرى من الله لأمي وهي: أن كل التقرحات التي كانت في جسدها اختفت ووجدوا

جسد أمي نظيف تماما وكأنّ أحدهم غسلها بالماء والصابون، ولم يجدوا قاذورات في البامبرز، فغيروا لها ملابسها، وكانت كأنها نائمة على السرير كالملاك لا يوجد عليها أثر للمرض أو للإرهاق والتعب، ثم تواصلوا مع إخوتها ليأتوا ويروها الرؤية الأخيرة، واتصلت بي شقيقتي لتخبرني عن ما حدث وعندما كانوا يذكرون إسمي كانت تصدر صوت أنين، وكانت أمي سابقاً عندما تذكر لحظة موتها تقول لي: سأُوصي أن لا يدفنوني حتى تأتي.

وكنت أرد: لن أستطيع رؤيتك وأنتي ميتة، عندما يتصل بي أخي عصام ليخبرني بوفاتك هقول له ادفنها وأنا جاي في الطريق.

وكانت تقسم بأنهم لن يدفنوها حتى أأتي، وكأنها أخذت من الله وعد بذلك وبالفعل حقق الله لها أمنيتها، وظلت غائبة عن الوعي حتى ركبت وسيلة النقل، وبعد أن ركبت بساعتين وفي حوالي الساعة العاشرة مساءً، وأثناء ما كانت شقيقتي وزوجة أخي عصام يسقونها بالمعلقة ماء محلى بعسل النحل صعدت روح أمي إلى بارئها، الآن أمي ستستريح من هذه الدنيا المؤلمة التي تعذبت فيها كثيرا، الآن ستنعم بالراحة الأبدية بعد رحلة عذاب شاقة.

اتصلت بي زوجة أخي عصام وأخبرتني بوفاة أمي. مر الليل عليّ في المواصلات وأنا أبكي وأتذكر أُمي، وفي الصباح رفعت شقيقتي هند الغطاء عن وجه أمي الشريف فوجدتها تبتسم فقالت: أخي أحمد وصل.

فاتصلت بي وكنت وصلت بالفعل إلى مدينتي وهذه كرامة أخرى من الله لأمي.

وعندما وصلت البيت ودخلت على أمي وهي ميتة وكانت كالملاك النائم انكفأت عليها وأجهشت بالبكاء، وتركني الجميع مع أمي في الغرفة وحدنا فقلت لها: كدا يا أمي نفذتي ال في دماغك وجعلتيني أشوفك وانتي ميتة وأحضر دفنتك!

ثم عاودت البكاء المرير، وأتى زائرين من أقاربها ليروها منهم إخوتها.

وعندما حضنت أمي وجدت أن كتفها وظهرها قد انعدلا لأن أمي ظلت عام كامل تنام بميل ناحية اليمين وهي جالسة حتى تسبب هذا في أتب في ظهرها وانعواج كتفها الأيسر ولكن وسبحان الله في آخر يوم لها ربنا شفها من كل الأمراض واختفت كل التقرحات وانعدل جسدها وكأنها لم تكن مريضة من قبل وهذه أيضا كرامة من الله لأمي، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يخبرنا بمكانتها عنده وبالمكان الذي ستذهب إليه وهذا من فضله عليها وعلينا. فلأمي أشياء جميلة في حياتها لا يعلمها إلا الله وأولادها، فأنا أرى والله أعلم أن الله أراد أن يطهرها من

ذنوبها قبل ذهابها إليه وعندما طهّرها أظهر لها كرامات ليرفع من شأنها وكأنه يقول لمن كان يتهمها بعدم الصبر: أنا أعلم بعبادي منكم، وأنا وحدي من يحدد الصابرين.
وكانت أمي وهي ميتة تبتسم ابتسامة خفيفة لا تظهر منها أسنانها وعندما أتت المُغسّلة زادت ابتسامة أمي حتى ظهرت سِنّة من أسنانها.
حملنها ووضعناها على تربيزة الغسل، وكان الحمد لله غسلها سهل ونظيف.
وبعد غسلها بحوالي ساعة حملناها إلى المسجد ومكثت فيه قليلا في نعشها وصلينا عليها الظهر وحملنها إلى قبرها وأدخلنها فيه وكم ودت لو أستطيع الدخول معها في قبرها، وعندما تقبلنا العزاء ورحل الجميع جلستُ على قبرها وكان بيني وبينها تواصل روحاني وكنت كلما هممت بالرحيل أشعر أنها تقول انتظر قليلاً، وتكرر هذا الأمر حتى رحلتُ وتركت أمي في قبرها وأنا أظن أنها عند من هو أحن عليها منّا، وأرحم بها من الجميع.
وكان في سؤال عنها شغل تفكيري كثيرا وهو: هل كانت أمي على دراية كاملة بما حدث حولها عندما فقدت الوعي وعندما ماتت؟
وكانت الإجابة منها هي، رأيتها في المنام بعد وفاتها مباشرة وقد شفيت من كل الأمراض وترتدي جلباب أبيض فسألتها: هل كنتي على دراية بما حدث حولك.
قالت بأسلوب كلامها المعهود: أيوا يا اخويا.

"ماتت أُمي" وهذه أقسى كلمة قلتها على الإطلاق.. ماتت أمي لتنتقل من الحياة في الواقع إلى الحياة في ذاكرتي وخيالي، فارقت واقعنا فراق مؤلم أرهقنا كثيرا، وعزائنا الوحيد هو أنها ارتاحت من ألمها، فرحلة أمي مع المرض كانت أسوأ رحلة مرت عليّ، فأنا لم أر في حياتي كلها أحد تألم مثل أمي.
ماتت أمي وهي كانت بالنسبة لي الكون الذي أعيش فيه، وفجأة أخذوا الكون منّي وتركوني أعيش في فراغ بلا هدف، بلا عنوان، بلا طموح، بلا أمل، أصبحت شخص تائه في فراغ.

خسرنا باب من الخير بموت أمي ... وبموتها ينقص الكثير والجميل
وبت كأنني كهل عجوز لا يُرجى ... عندهُ أمل ولا العمر الطويل
وطفل بداخلي يبحث عن ... أمه بين جدران العمر الضئيل

فتعود مسعاه خائبة فيزرف ... الدمع ويصرخ بالعويل
ويقول: ماتت غنيمة ماتت أمي ... ماتت من تلي الجليل
وأُغلق باب من المعروف بعده ... كل معروف مهما كثر قليل

كلمات| أحمدعبدالمنعم دياب

حب الوالدين هو الحب الحقيقي الصادق الذي لا جدال ولا نقاش فيه، والحب داخلنا لا يموت حتى وإن تظاهرنا بوفاته، فهو حقيقة ملموسة ولا نستطيع دفن من أحببناهم في مقابر النسيان، لأن وبكل وضوح ذكراهم في خواطرنا وفي قلوبنا شجرة تكبر كل يوم عن الذي قبله، شجرة نستظل بها كلما اشتدت علينا هموم الدنيا، فنتذكرهم ونستريح، ونستنشق عبق رائحتهم التي تحملها ذكرياتنا معهم، نستنشقها ونسترخي ونستجم، ونسافر عبر الزمان حيثما كانوا وكنّا معهم، فنهدأ ونستقر ونصبح جاهزين لإستكمال مسيرة الحياة المؤلمة.
قبل وفاة أمي على امتداد عمري كنت أظن أن الفراق المر هو فراق العاشقين، ولكن عندما ماتت أمي لمست الفراق الحقيقي وتأكدت أن أي فراق بعدها هو هباء لا قيمة له، وكل فقد بعدها فقد هيّن، أمي ماتت وأنا مُت معها وما بقى لي هو جسد لا يعيش بروح بل يعيش بذكرى أمه.

رحم الله أمي وجميع الأمهات.

انتهى

أحمد عبدالمنعم دياب

نبذة عن الكاتب

هو أحمد عبد المنعم دياب
كاتب ومفكر مصري
يعود نسبه إلى سلالة كوترومانيتش
آخر سلالة ملكية حكمت دولة البوسنة والهرسك
أتت عائلته إلى مصر ضمن جنود محمد علي باشا
لطرد الإحتلال الفرنسي من مصر
له عدة مؤلفات ، منها من طُبع ، ومنها في طريقه للطباعة

ما صدر للكاتب من مؤلفات

القراءة روح الحياة والذي لا يقرأ هو في الحقيقة

إنسان ميّت

أحمد عبدالمنعم دياب